من تراث علمائنا

تفسير سورة النور

الحلقة الخامسة

للعلامة الشيخ ابراهيم الجبالي

رأت المجلة أن تغني اعدادها بنتاج اقلام العلماء الذين كان لهم اثر عظيم في النهضة العلمية الاسلامية في مطلع هذا القرن.

وكانت مجلة «نور الاسلام» التي يُصدرها الازهر الشريف في مطلع هذا القرن تضم نخبة من العلماء الأئمة الاعلام، كالمفسر العلامة الشيخ ابراهيم الجبالي رحمه الله تعالى.

وسوف تتابع مجلة «هدى الاسلام» — باذن الله تعالى — نشر بعض تراث هؤلاء العلماء في الاعداد القادمة خدمة للعلم والعلماء.

سكرتير التحرير

قال تعالى : (إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ . لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِٱلشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

سبب النزول — كان من عادته صلى الله عليه وسلم اذا خرج الى غزاة أن يقرع بين نسائه فأيّتهن خرجت عليها القرعة اصطحبها معه فى سفره ، فلما أراد الخروج لغزوة بنى المصطلق أقرع بينهن فخرجت قرعة أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما فسافرت معه ، وكان ذلك فى سنة ست من الهجرة بعد نزول آية الحجاب ، فلما فرغ من الغزاة وقفل راجعا الى المدينة نزل منزلا قريبا منها ، ثم أمر بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش لقضاء بعض شأنها ، ثم أقبلت الى رحلها فافتقدت عقدا لها كان فى عنقها ، فرجعت تلتمسه حيث كانت فحبسها ابتغاؤه ، وجاء الرهط الذين كانوا يحملون هودجها فرحلوه على بعيرها وهم يحسبونها فيه ، وكانت حديثة السن ، والنساء إذ ذاك خفيفات اللحم ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج ، فلما وجدت عقدها ورجعت

إذا بالجيش قد سار وليس بالمكان داع ولا مجيب ، فأمّت المنزل الذى كانت به ظانة أنهم سيرجعون اليها حين يفقدونها ، فجلست حتى غلبها النوم .

وكان صفوان بن المعطل السلمى يتخلف عن الجيش عادة ليتتبع منازلهم بعد رحيلهم عسى أن يكون أحدهم قد نسى شيئا فيحمله الى المنزل الآخر ، فلما أقبل عليها عرفها ، وقد كان يراها قبل نزول آية الحجاب ، فأناخ راحلته بجوارها وولّاها ظهره وأخذ يسترجع ، شأن المؤمنين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت على استرجاعه فوجدت الراحلة بجانبها فركبتها ، وأخذ هو بزمام الناقة يقودها لكيلا يقع بصره عليها حتى وافى القوم وهم نزول فى المنزل الآخر ، فمر بجماعة فيهم المنافق عبد الله بن أبى ابن سلول ، فسأل فقيل هذه عائشة ، فقال كلمة الإفك ، وفتن بكلامه نفر من المؤمنين ، فلما قدموا المدينة مرضت عائشة ، ومكثت شهرا لا تدرى ما يقول الأفاكون ، قالت : وما كان يريبنى من رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى أنى لم أكن أرى منه اللطف الذى اعتدته منه اذا كنت أشتكى ، فكان يدخل فيسلم ويقول : كيف تيكم (وتى إشارة للمؤنث) ثم ينصرف ، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح لبعض شأنهما ، ولم يكن من عادتهم إذ ذاك اتخاذ الكنف فى البيوت ، فلما رجعتا عثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ! وكان مسطح أحد الخائضين فى الإفك ، فقالت لها عائشة : بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدرا ! قالت : أو لم تسمعى ما قال ؟ قالت وما قال ؟ قالت : أما إنك من المحصنات الغافلات ، إنه يقول كيت وكيت ، وأخبرتها بإفكهم ، فعاودها المرض أشد مما كان ، فدخل صلى الله عليه وسلم وسأل عنها كعادته فاستأذنت منه أن تأتى أبويها ، تريد أن تستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لها ، فأتت أمها وسألتها : ما يتحدث الناس ؟ فقالت : يا بنية هوّنى

عليك فقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ، فقالت : سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؛ وملكها البكاء ليلتها لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، ومكثت هكذا ليلتين ويوما .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار بعض الصحابة فى ذلك فمنهم من قال : والله ما نعرف عن أهلك إلا خيرا ، ومنهم من قال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك ، فسأل بريرة فقالت : والذى بعثك بالحق ما علمت عليها أمرا أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أتى المسجد وصعد المنبر وقال فيما خطب : يا معشر المسلمين : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ؟ فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا — يريد عبد الله بن أبى — فقام سعد بن معاذ وهو سيد الأوس فقال : أنا أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فرد عليه سعد بن عبادة سيد الخزرج وقد ملكته الحمية وذكرى أيامهم الماضية التى أنقذهم الله منها وألف بين قلوبهم ، والشيطان مسالك ولكن لا يلبث الإيمان أن يتغلب عليها ، ثم تحرش الحيان بعضهما ببعض حتى همّا أن يقتتلا ، فخفض بينهما صلى الله عليه وسلم حتى سكتوا ، ثم دخل صلى الله عليه وسلم عليها وهى فى بيت أبويها فتشهد ثم قال :

أما بعد يا عائشة فقد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فإن العبد اذا تاب تاب الله عليه .

قالت : فلما قضى صلى الله عليه وسلم مقالته تقلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة . وذلك شأن البرىء يستشعر بعزة النقاء والبراءة ، ثم قالت لأبيها : أجب عنى رسول

الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله ما أدرى ما أقول . وقالت لأمها كذلك فأجابت بمثل جواب أبيها، فقالت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ذلك القول حتى استقر فى نفوسكم ، ولئن قلت لكم إنى بريئة — والله يعلم أنى بريئة — لا تصدقونى ، وإن اعترفت لكم بما يعلم الله أنى بريئة منه لتصدقنى ، والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا قول العبد الصالح أبى يوسف : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، واضطجعت على فراشها ، قالت : وأنا والله أعلم أن الله سيبرئنى ولكن ما كنت أظن أن سينزل فى شأنى وحياً يتلى ، ولقد كنت أحقر فى نفسى من هذا ، وإنما كنت أرجو أن يرى صلى الله عليه وسلم رؤيا فى منامه يبرئنى الله بها ، قالت : فوالله ما قام صلى الله عليه وسلم من مجلسه ولا خرج أحد من البيت حتى أنزل الله الوحى على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحى من البرحاء حتى إنه ليتحدر عنه مثل الجمان من العرق فى اليوم الثانى ، قالت : فوالله ما فزعت وما باليت علما منى ببراءتى ، وأما أبواى فحسبت أن نفسهما ستخرج فرقا من أن ينزل الوحى محققا ما قال الناس ، فسرى عنه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال : أبشرى يا عائشة ، أما والله لقد برأك الله . فقالت أمها : قومى اليه ، فقالت : لا أقوم ولا أحمد إلا الله الذى برأنى ، فنزلت الآيات العشر (إِنَّ ٱلَّذِينَ جَاءُوا بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ) وقد كان مسطح قريب أبى بكر : كانت أمه بنت خالة أبى بكر ، وكان أبو بكر ينفق عليه لفقره فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه ، فنزل قوله تعالى : (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِى ٱلْقُرْبَىٰ) الى قوله : (أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ) فقال أبو بكر : بلى والله إنى أحب أن يغفر الله لى ، وعاد للنفقة عليه .

ولقد سقنا هذه القصة على طولها ليتبين سبب نزول هذه الآيات ، وليتجلى ما فيها من أخلاق كريمة من عائشة وأبويها ، وليظهر أن الذين كانو يزعمون الإيمان وهم خلو منه

إبقاء على أنفسهم، ما كانوا يألون جهدا فى تتبع ما يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وكانت السياسة الشرعية والحكمة فى الدعوة مدعاة للكف عنهم حتى لا يقال إن رسول الله يقتل أصحابه .

المفردات — الإفك : هو أبلغ الكذب وأبعده عن الصدق، والعصبة : الجماعة من العشرة الى الأربعين، وقيل من الأربعة فصاعدا . والخطاب فى منكم ولكم لجماعة المؤمنين، وقوله : (لَا تَحْسَبُوهُ) : الحسبان الظن، ويقال غالبا لظن خلاف الواقع .

والمعنى أن تلك الجماعة التى اختلقت ذلك البهتان وأتت به من عند أنفسها ما خرجوا عن أنهم عصبة منسوبة اليكم ومعدودة منكم، فلا تثر أنفسكم عليهم كل الثوران فالمرء عادة عرضة لأن يصاب من أقربيه، وأجمل شئ به حينئذ أن يغضى بعض الإغضاء ولا يبالغ فى الاستقصاء، والتسلى بهذا المعنى معهود عند العرب كقول الشاعر :

قومى هُمو قتلوا أميم أخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى

وأيضا فإنهم عصبة، والعصبة جماعة قليلة تعصبت وائتمرت على أمر بيّتته وترابطت عليه، وفى ذلك تهوين لشأنه، إذ ليس التحدث به مستفيضا بنفسه بل بيّته قوم محصورون، فالغرض من هذا الإخبار بدء التسلية لمن أصيبوا بذلك وهم من وجه اليه القذف ومن يتصل به، أى عائشة وصفوان وأبو بكر وزوجه والمصطفى صلى الله عليه وسلم . وقوله تعالى بعد ذلك : (لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فيه من التسرية عنهم ما يزيل أثر كل حزن، فكفى بشهادته جل شأنه أنه خير لا شر فيه، وكيف لا وقد حازت به عائشة رضى الله عنها شهادة ببراءتها يقينا، وأصبح التصديق ببراءتها وطهارتها جزءا من إيمان كل مؤمن، ومن شك فيه فقد كفر، إذ شك فى خبر الله عز وجل، وفيه

التوعد لأولئك الذين اختلقوه باستحقاق كل منهم من الله جزاء ما كسب، فالله القادر القاهر هو الذى تولى عنكم عقوبة من آذاكم، وخص كبيرهم فى هذا بالعذاب العظيم، وفيه حسن التأديب لعامة المؤمنين بطلب ظن الخير وعدم المسارعة الى سوء الظن، والدعوة الى تطهير اللسان وصون الآداب، والتحرز عن الخوض فى كبريات التهم بلا علم، وتقدير بينات التهمة بحسب فظاعتها حتى لا يتخذ الناس الكيد بالاتهام الكاذب ذريعة للخدش والنكاية بلا حق.

فكل هذا من الخير الذى عاد على المقذوفين ومن اتصل بهم وعلى عامة المؤمنين بسبب هذه الحادثة، ولله فى طى كل مصيبة نعمة، فسبحان من لا يحمد على المكروه سواه، إذ فى ضمنه محبوب ورحمة وإن لم يطلع على ذلك صاحبها. ولقد ترى من آثار الخير ما بدا من عائشة رضى الله عنها فيما بيناه فى القصة السابقة من استجماعها قواها وعدم تضعضعها وقت أن جد الجد حين عرض صلى الله عليه وسلم مقالته عليها ورجوعها أدبا منها لأبويها ليجيباه، وتنحيهما عن أن يهجما على البت بأمر لا يتعلق بأنفسهما وإن كان متعلقا بأعز نفس عندهما، احتراما للحق ووقوفا عند حد العلم.

وما أبعد هذا مما نراه متكررا من اندفاع الناس للدفاع عن ذويهم بغير علم، واجترائهم على الحلف فيما لا سبيل لهم الى علمه إلا مجرد حسن الظن أو ميل القلب لمن يدافعون عنه، ثم قولها رضى الله عنها: لقد سمعتم هذا القول حتى استقر فى نفوسكم، وهى قاعدة مقررة أن تكرار القول من شأنه أن يترك كل مرة أثرا فى النفس حتى ينقلب من الإنكار الى الشك الى الظن الى الاستقرار، ثم إباؤها التكلم بما لا ترى فى نفس مخاطبيها استعدادا كاملا لقبوله، وردها الأمر الى الله مستعينة بالصبر، واثقة بمعونته جل شأنه، فهذا مظهر من الكمال العقلى والخلقى لم يكن يتجلى لولا هذه الحادثة، وإن من أراد أن يستنبط منها من صنوف الخير ليجده وافرا على ما فى القصة من مكروه.

وذكر وعيد الأفاكين بعد بيان أنه خير، لكيلا يبقى فى نفوس من لحقهم هذا الأذى شئ من الأثر، فقد بان خيرهم وانتقم الله لهم ممن آذاهم، وقوله: (لِكُلِّ امْرِئٍ) أتى باللام فى مقام على للإشارة الى أن هذا حق لازم لصاحبه لا مفر من استيفائه، والتنصيص على أن الجزاء لاحق لكل امرئ منهم أشفى للنفس من أن يلحق بجملتهم، وغير خاف حال من تولى كبره منهم، والكبر بكسر الكاف وقرئ بضمها مع سكون الباء فى كل: هو معظم الشيء، وقيل كبر الشيء بالكسر بداءته، وقيل الإثم. والذى تولى ذلك هو عبد الله ابن سلول، وسلول أمه، وكان رأس المنافقين، كان يطمع فى سيادة قومه فلما جاء الاسلام وأسلم الأنصار ولم يقو على مناهضة هذه القوة العظمى انضوى تحت لوائها قهرا ونفاقا، ومازال الحقد والنفاق يأكلان قلبه حتى مات، وكثيرا ما كشف ستر الرياء عن نفسه الخبيثة، فما كان يلوح له فرصة فى التأليب على المسلمين أو إيصال الأذى اليهم إلا انتهزها، وكان ما يخفيه صدره أكبر مما يبدو من فيه، وعظم عذابه بقدر عظم جريمته.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) — لولا للحث على الشيء وتأكيد طلبه وبيان أنه كان ينبغى أن يسارع اليه لو تنبهتم الى ما فيه من دواعى الأخذ به، وتلك الدواعى هى أولا — أنه من عمر الإيمان قلبه من رجل أو امرأة وأحس من نفسه أنها تأبى الوقوع فى مثل هذا الفحش، ينبغى أن يقيس على نفسه من شاركه فى وصف إيمانه، فقد وحد الإيمان بين أنفسهم، وهذا سر قوله: (ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا) فكأن ما تظن وقوع غيرك فيه ترى فى نفسك أنه قريب الوقوع منك، فهل أنت أيها المؤمن كذلك؟ وحقا إن المرء يتخذ نفسه غالبا مقياسا لغيره، ويحمل ما يصدر منه على حال نفسه، كما قال الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم

واستفزاز للحمية الرشيدة ببيان أن ما توهموا لحوقه بإخوانهم فى الدين فقد جروا بذلك الريبة بمثله على أنفسهم، فكأنهم رأوا الإيمان غير كاف فى ردع النفوس عن شرورها، ثم فيه تربية الأواصر والارتباط بين المؤمنين، وأن أحدهم من صاحبه بمنزلة نفسه فينبغى أن يغار عليها غيرته على نفسه. وقوله: (وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ) إرشاد للرد المنتظر، بأن لا يكتفوا بالظن فى أنفسهم، بل يجب أن يتبعوه برد الفرية على صاحبها، واسم الإشارة القريب هنا للتحقير، كأنه يصور بصورة الأمر الذى لا يتشوف اليه ولا تتبعه النفوس استقصاء، وذلك فى القريب المشاهد. وإفك أى كذب مختلق بلا أصل، وقلب الأمور عن وجهها، ومفاجأة بالبهتان، ومبين أى ظاهر فيه أمارات التكذيب لا يحتاج الى شدة تأمل، وذلك أن من مقتضى الكرامة اللائقة بمقام النبوة أن تصان فرشهم عن هذا التلويث المزرى بمقام صاحبه، وأنه اذا جاز أن تكفر امرأة نبى كامرأة نوح وامرأة لوط، فلن يجوز أن تفجر امرأة نبى وهى على فراشه، فإن الكفر وإن كان أشد جرما من الفحش ولكن هذا الفحش أكبر منه عارا، وأشد تنفيرا، وأوجب للاحتقار فى نظر الناس، والأنبياء مصونون عن أن يلحقهم ما يزرى بمقامهم، ويهد من كرامتهم، ثم منبت عائشة رضى الله عنها ونشأتها وما عرف من خلقها وعقلها بيّن فى أنها رضى الله عنها أبعد فى نظر كل عقل عن أن تحوم حولها الشبه.

وأيضا فإن صدور هذا الإفك عن قوم عرفوا بالنفاق ولهم سوابق فى الكذب والبهتان أمارة على أن ما جاءوا به كذب وافتراء، ومتى كانوا صادقين حتى يصدقوا فى هذا؟ فكل ذلك من وجوه ظهور أن هذا إفك ما كان ينبغى أن يحل فى نفوس

المؤمنين محل أن يغيظهم . ولا يعكر على الوجه الأول وهو أن هذا لا يحتمل فى مقام الأنبياء كونه صلى الله عليه وسلم اختلفت عادته فى ملاطفتها حال مرضها، وأنه سألها ذلك السؤال أمام أبويها، فهذا إنما كان من ضيق صدره عليه السلام بكلام الأفاكين، وقد قال تعالى : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ) لا أنه تطرق اليه ريبة فى أهله، فقد قال فى خطبته : والله ما علمت على أهلى إلا خيرا .

(لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) .

هذا من تأكيد فظاعة الأمر الذى اختلقوه، وأنه من القذف الذى لا يحل أن يقدم عليه امرؤ أو أن يؤخذ به إلا اذا كان له من الحجج ما يناسب عظمه وفداحته، وفى ذلك تأديب وتربية على أن تعطى كل دعوى ما يناسبها من الحجج، وقد شرح ذلك فى آية القذف فى العدد الماضى . وقوله : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ) تقرير لكذبهم لا أنه تعليق، فالمعنى هم الكاذبون عند الله فى هذا، وكان حقكم أن تعرفوا كذبهم أو ألا تنخدعوا فى قولهم لأنهم لم يأتوا بالشهداء، فليس هذا من باب عجز المدعى عن الإثبات، وهو لا يستلزم الكذب، بل من باب لوم من انخدع بكلامهم فى غير مظان الخديعة، والإشارة اليهم لاستحضارهم بأولئك بصفاتهم التى بها استوجبوا تسجيل الكذب عليهم، بل انحصار الكذب فيهم، كما يستفاد من الجملة المعرفة الطرفين المشتملة على ضمير الفصل، كقولهم : هذا هو القاتل، أى لا قاتل غيره، فكأن كذبهم لشدة شناعته قد استأثر باستحقاق اسم الكذب ولا كذب غيره، ومثله قولهم : هذا هو الرجل، أى لا رجل سواه، وكلمة (عند الله) أى فى علمه وفى الواقع : فيها مزيد تقرير وتثبيت لهذا الحكم، وعلى هذا يكون الكلام

فى مورد القصة بعينه ، وهو قذف أم المؤمنين رضى الله عنها ، وتكون لولا للتبكيت والتأنيب لا للحض والطلب .

وفى الآية وجه آخر وهو الحمل على العموم بحيث يشمل هذه القصة وكل ما يماثلها من نوعها ، وإذاً تكون لولا لبيان ما يطلب فى مثل هذه الحال . وقوله : (فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ) الخ : يكون معناه أن من قذف ولم يقم البينة المطلوبة فهو كاذب عند الله ، أى حكمه فى شريعة الله حكم الكاذب يقينا ، فيقام عليه حد الكاذب ، فمعنى (عند الله) أى فى حكم شريعته ، والوجه الأول أنسب بالسياق .

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

لولا هنا للربط والتعليق ، وهي التى يقال فيها حرف امتناع لوجود ، أى دلت على ربط عدم مس العذاب بوجود الفضل والرحمة . والفضل : الزيادة فى الجود والكرم ، والرحمة : الرأفة ، وكلاهما فى الدنيا بإضافة النعم التى منها الإمهال للتوبة والإرشاد لطرق الخير ، وفى الآخرة بقبول توبة التائبين وإثابتهم على امتثال أوامره ، وقيل إن «فى الدنيا» يرجع للفضل « والآخرة » يرجع للرحمة ، ولا داعى له . والتعبير بالمس لتهويل شأن العذاب وأنه يكفى فى الإزعاج به مسه ، لا لتهوين الإصابة به . والإفاضة : الخوض مع الإكثار ، كأنهم زادوا فى حديثهم حتى فاض من جوانبهم كما يفيض الماء من إنائه ، ووصف العذاب بالعظم ليكافئ عظم الخطب الذى وقعوا فيه . والخطاب لعموم الخائضين وإن كان فيهم ابن سلول ، فإنه داخل فى الفضل والرحمة فى الدنيا ، وقد هيئا له فى الآخرة ففوتهما على نفسه بإصراره بعد ما تبين الحق ، ويجوز أن يكون الخطاب لعامة المؤمنين على معنى أن هذا الذى وقع فيه من وقع لولا فضل الله ورحمته لكان من موجبات عموم العذاب ، كأنه من الفتن التى لا تختص نتائجها بالذين ظلموا ، وقيل الخطاب للخائضين

غير ابن أبى .

وفى الآية نوع آخر من الخير وهو تنبيههم الى نعمة الله عليهم ورحمته التى يجب أن يشكروها ويعرفوا قدرها فلا يغتروا بإمهال عقوبة حتى يأمنوا مكر الله ، وإذا تورطوا فى معصية فلا ييأسوا من روح الله ، فهذا ما فيه الخير لعامة المؤمنين ، وأما الخير الخاص بالمقذوفين ومن يتصل بهم ، فحسبك منه هذا التنويه العظيم بشأنهم ، إذ كاد سوء عمل أولئك القاذفين يرديهم فى سوء العذاب لولا فضل الله ورحمته .

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ) .

إذ ظرفية متعلق بمسكم ، وفيها معنى التعليل ، فإن ربط الفعل بوقت حادثة مشعر بأن حصوله بسببها ، أى مس العذاب لتلقى ذلك القول ، والتلقى والتلقف والتلقن متقاربة المعنى ، أى أخذ الشئ بحرص واعتناء — إلا أن فى التلقى معنى الاستقبال له والتهيؤ لأخذه ، وفى التلقف معنى السرعة فى الالتقاط ، وفى التلقن معنى الحذق فى تفهمه واستقصائه . وقوله : (بِأَلْسِنَتِكُمْ) معناه أنهم كانوا حين ملاقاة بعضهم بعضا يستثير أحدهم الآخر بسؤاله ما وراءك ؟ فكان يتلقى ذلك القول ويجتذبه بلسانه ، لا أنه مجرد سماع عفوا ، وبهذا يظهر ما فيه من معنى الجرم . وقوله : (وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ) معناه أن هذا القول لم يكن له محل فى قلوبكم وأمارات تقره فى نفوسكم ، بل هو قول اذا رجعتم الى أنفسكم لا تجدونه يتجاوز أفواهكم ، فما لأحد منكم به من علم ، فالتقريع فيه من جهة الإقدام على ما لا علم فيه ، فهو كقوله تعالى : (يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) ويجوز أن يكون تشنيعا عليهم ، كقولك : تقول هذا بفمك أو بملء فيك ، أى تجاهر به ولا تخبئى ما فيه من ضرر وخطر ؟ وقوله : (وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا) تنبيه على جرم آخر

وهو استهانتهم بما وقعوا فيه، فالمؤاخذة فيه فى ثلاثة مواضع : تلقى ذلك بالسؤال عنه، وأنهم يقفون ما ليس لهم به علم ويملأون به أفواههم، واستهانتهم بما صدر منهم فلا ينعطفون الى الاستغفار والإقلاع مع عظمته عند الله . والخير فى ذلك لعامة المؤمنين التربية والإرشاد الى قبح ما وقعوا فيه، ليتعلموا دقائق الأعمال وما تحتويه من خطر حتى لا يتردوا فى مثلها فى المستقبل، وآثار ذلك واضحة جلية ألمع الى شىء منها فى الآية التالية، وهى قوله جل شأنه : (وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) فإن فيها تنبيها على ما كان ينبغى أن يصدر منهم حين سماعه من التحرز عن التكلم به فضلا عن الإفاضة فيه، وتلقيه بألسنتهم بحثا عنه وجريا وراءه . ولولا هنا للحث المصحوب باللوم، إذ كان حقهم أن يتفطنوا له من أنفسهم، فإن دلائله واضحة، فإن فيه إيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) وقذفا لأم المؤمنين وما عهد عليها ولا على أحد من بيتها ما يريب، وإقداما على ما يضر المقدم عليه بلا احتمال لمنفعة عاجلة ولا آجلة، ومثل هذا لا يصح من عاقل فضلا عمن ملك الإيمان قلبه، وافتياتا بلا علم على ثلم شرف هو أعز على صاحبه من كل شىء، فكل هذه الوجوه كانت تؤدى الى أن يقولوا : (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا) وهذا من أبلغ طرق التربية والتعليم للمسالك التى يحسن بالمؤمن سلوكها . وقوله بعد ذلك : (سُبْحَانَكَ) فيه أولا تنزيه الحق جل جلاله عن أن يرضى لأكرم الخلق عليه صلى الله عليه وسلم بحلول هذه النقيصة بألصق الناس به، أو أن يرضى عن طغيان أولئك الأفاكين . وقوله : (هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) أصله من بهته اذا فاجأه بكذب مختلق بلا أصل ولا يخطر على البال، فإن المرمى بهذا يبهت ويدهش، وعظمه لعظم خطره وشدة وزره .

هذا وقد روى أن بعض الصحابة رضي الله عنهم حين سمع هذا قال : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . فكأن فى الآية إشارة الى حسن التأسى ووجوب التفطن لما هو الأعظم قبولا فى نظر العقل ، والأشد انطباقا على الأخلاق الشرعية ، ولا يعكر على هذا ما بدا على أبى بكر وزوجه من الجزع ، فما كان ذلك لريبة لحقتهما ، وإنما هو التأذى مما أصيبوا به من الكلام البذىء بلا وجه حق ، وقد روى أن أبا أيوب قال لزوجه : ألا ترين ما يقول الناس ؟ فقالت : لو كنتَ مكان صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوءا ؟ قال : لا ، قالت : ولو كنتُ مكان عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعائشة خير منى وصفوان خير منك . فقال أبو أيوب : ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم .

يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

هذا كالنتيجة للآيات السابقة ، وأن ليس الغرض منها مجرد التقريع والتوبيخ ، وإنما يقصد بها العظة والتعليم حتى لا تقعوا فى مثل ما وقعتم فيه بلا تبصر . وقوله : (أَبَدًا) أى ما دمتم أحياء . واقترانه بإن كنتم مؤمنين ، لبيان أن ذلك مقتضى الإيمان وثمرته ، فاذا لم تتعظوا به فإن الايمان لم يؤت ثمره . وقوله : (وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) حث للعقول على التدبر فى أحكامه وحكمه ، ليعين ذلك على قبول النفس لها وعظم رغبتها فى الامتثال . وتكرار لفظ الجلالة فى الآية الكريمة لتمكين ذلك فى النفس فضل تمكن ، والعليم : المحيط بكل شىء وما يترتب عليه ، والحكيم : الذى يضع الأمور فى نصابها وتستتبع أفعاله الفائدة والثمرات ، والله سبحانه وتعالى أعلم ؟